الجواب على شبهة: لماذا سمح الله سبحانه وتعالى بوقوع الحادث على الطفل ريان رحمه الله وشفعه في أهله

الحمد لله خالق الوجود من العدم، وجاعل النور من الظلم، ومخرج الصبر من الألم، وملقي التوبة على الندم، فنشكره على المصائب كما نشكره على النعم.[١]

من اليقين بخبر الله: استحضار قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن المعونة تأتي من الله على قدر المؤنة، وإن الصبر من الله يأتي على قدر البلاء)** -تخريجه في الصحيحة ١٦٦٤-.

فليس صبر من صبر من الأوائل على عظيم البلاء إلا بمعونة أنزلها الله عز وجل على قدر هذا البلاء:

فالشهيد لا يجد من ألم القتل إلا كما يجد أحدنا من مس القرصة!

وقد قُطعت رجل عروة بن الزبير فما تضوَّر[٢] وجهه!

وقال أحمد في شأن الذين ناظروه في محنته: **(وكنت أصيح عليهم وأرفع صوتي وكان أهون عليَّ من كذا وكذا، ذهب الله بالرعب من قلبي حتى لم أكن أبالي بهم ولا أهابهم).**

ولعلَّ من هذا أن الله عز وجل أوحى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام لما ألقاه إخوته أنه سينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون، وأن يعقوب عليه الصلاة والسلام لما ابيضت عيناه من الحزن قال لأبنائه: ﴿**وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: من الآية ٨٦] على خلاف في تفسيرها، إلا أن رؤيا يوسف عليه الصلاة والسلام كان فيها تسلية لكليهما.

وأن الله قد ربط على فؤاد أم موسى عليه الصلاة والسلام لما فقدته.

ولعلَّ من هذا القبيل أيضا ما ثبت -كما في الصحيحة ٢٥٠٨- أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكان إذا تفرقوا عنها ظللتها الملائكة.

---

[١] استهلال الفراهي لكتابه في تعيين الذبيح.

[٢] قَالَ ابْنُ الأَنباري: تَرَكْتُهُ يَتَضَوَّرُ؛ أَي يُظْهِرُ الضُّرَّ الَّذِي بِهِ ويَضْطَرِب. (لسان العرب)

وأيضاً فمن مظاهر رحمة الله عز وجل في الابتلاءات التي يجريها ما قاله الرافعي: **(مهما يبلغ الألم في عذاب إنسان فلن يجاوز حالة معينة ثم يُغْمَى على المتألم ويستريح، ولو دقت في عظامه المسامير، كالماء مهما تُوقد عليه فلن يعدو درجة معروفة في غليانه ثم يثبت عندها، ولو أضرمت عليه من النار التي وقودها الناس والحجارة!..)** اهـ.

ومن كذَّب بهذه الألطاف الخفية أو شك فيها فهو الذي يُشكل عليه أمر وجود الابتلاءات والشرور في الدنيا، فتراه يسأل: لم مكن الله فلانا من تعذيب فلان البريء؟ ولم مكَّن فلانا من اغتصاب فلانة البريئة؟ ولو كان موقناً لعلم أن الله أرحم بهؤلاء البرآء من أمهاتهم، ولكن رحماته الخفية أكثر من رحماته المدركة بالحس، شاهد ذلك في حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً قوله صلى الله عليه وسلم: **(فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه -القرية- أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوُجد إلى هذه أقرب بشبر! فغفر له)**.

فانظر كيف أن الله لما أراد رحمة هذا العبد غير لأجله مسافة الأرض بين قريتين! فهل اتضح شيء من معاني كون الله عز وجل أرحم بعباده من أمهاتهم بهم؟

وإن كانت هذه رحمته بقاتل تائب فكيف رحمته بالمقتول؟!

وتأمَّل كيف أن الله عز وجل رحم هذا المذنب بسبب أخفاه عن ملائكته! فكيف برحماته التي يخفيها عن البشر؟ خاصة رحمته بمن كان لا حيلة له سواه سبحانه وتعالى، ومن أبلغ من يظهر فيهم ذلك: الأطفال الذين قال الرافعي في السحاب الأحمر عن أحدهم: **(فلو زَفَرت حولهُ جهنمُ فأحْرَقتْه لكفَّنتْه نسمة من نسمات الجنة! ويا سعادة من يستطيع بطبيعته أنْ ينقطِع من وسائل نفسه إلى وسائل الله!)** اهـ.

من استقر في قلبه هذا اليقين لم يرَ في الدنيا شراً محضاً، سواء أدرك بعض جوانب الخير التي تحف ما يظنه الناس شراً أم لم يدرك، وفي صحيح مسلم: **(اجتمع حذيفة وأبو مسعود رضي الله عنهما، فقال حذيفة رضي الله عنه: لأنا بما مع الدجال أعلم منه، إن معه نهرا من ماء ونهرا من نار، فأما الذي ترون أنه نار، ماء، وأما الذي ترون أنه ماء، نار،**

فمن أدرك ذلك منكم فأراد الماء فليشرب من الذي يراه أنه نار؛ فإنه سيجده ماء. قال أبو مسعود رضي الله عنه: هكذا سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول).

فالابتلاءات في رأي العين كهذه النار، وأما الماء الذي يفرغه الله عز وجل على عباده في طيات البلاء فلا تدركها العين.

وهكذا، فالله عز وجل جعل الطريق إليه يمر عبر أوحش الأبواب، وهو باب الموت، وقد روى ابن أبي الدنيا في المنامات بسنده عن بشر بن المفضل: **(رأيت بشر بن منصور في المنام فقلت: يا أبا محمد، ما صنع بك ربك؟ قال: وجدت الأمر أهون مما كنت أحمل على نفسي!)** اهـ.

ولما سبق ذكره من كون المعونة من الله على قدر المؤنة، فقد دعا الذين برزوا لجالوت، ودعا سحرة فرعون لما هددهم فرعون بتقطيع الأيدي والأرجل والصلب بقولهم: ﴿**رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا**﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٠، والأعراف: من الآية ١٢٦]، **فخزائن كل شيء بيد الله**، وفي خزائن الله سبحانه وتعالى الصبر، وهو العطاء الذي لم يُعط أحد عطاء خيرا ولا أوسع منه.

قال القرطبي في تفسير دعوة الذين برزوا لجالوت ودعوة سحرة فرعون: **(الإفراغ: الصب، أي: اصببه علينا عند القطع والصلب)** اهـ، فكأن الصبر ماء يصبه الله على عبده عند البلاء بقدر ما يطفئ حره، وقد قرر العلماء أن قوله صلى الله عليه وسلم: **(والصبر ضياء)** دال على شدة الصبر لأن الضياء لا يكون إلا مع حرارة، والآية التي نحن فيها دالة على أن الصبر هو الذي يطفئ الله به حرارة المصيبة، فالظاهر أن الوصول إلى الصبر صعب إلا على من يسره الله عليه، فهذه حرارته، ثم إذا وصل العبد إليه لم يبق من حرارته شيء، بل استحال مبردا للحرارة.

شرح ذلك: أن الصبر النازل من عند الله جل وعلا إما أن يكون على مبتلى مكلف وإما يكون على مبتلى غير مكلف، وكلاهما يكون أول الصبر عليه فيه حرارة تخففها رحمة الله، ثم لا يزال يسهل ما هو فيه ولا يزال يتكيف معه حتى يذهب أثر البلاء.

ثم ينفرد المكلف بحرارة أخرى، وهي حرارة القبول للصبر المنزل عليه من الله، فالمكلف قد يستفرغ نظره في النظر إلى البلاء حتى لا يرى موضعاً لصبر ولا لرحمة، فمن حصل منه ذلك أدى به إلى الجزع، ويترتب على هذا الجزع حكمه الأخروي، وأما من الناحية الدنيوية، فسيجتاز -كغيره من الخلق- البلاء الذي هو فيه برحمة الله وحده، فكما أن جسمه يتكيف مع الجروح والحروق فنفسه قابلة للتكيف، بل قبولها للتكيف أكبر بكثير من قبول الجسد، وشاهد ذلك في من مرَّ بابتلاء شديد لا يُظن بمثله القدرة على النجاة من آثاره ثم شاهد الناس كيف أن حاله قد حسنت مع مرور الوقت أكثر من أن يُحصر.

وكم قد سمع الناس هذه العبارة: "لو قيل لي قبل تعرضي لهذا البلاء بأني سأتعرض له ثم سأنجو لما صدقت ذلك" وكفى بالإنسان على نفسه بصيرة، فما الذي تجدد في نفس وجسد هذا المبتلى؟ لا شيء سوى رحمة الله التي يدرك آثارها كل مبتلى، ولكن لا يقدر قدرها إلا الموفق من المبتلين، وأما من جزع لعماه عما يحيط به من رحمة الله فيقال في حقه: "كل الناس يدخل الجنة إلا من أبى، ولا يهلك على الله إلا هالك"، والتنبه لهذه الرحمات المحيطة بالبلاء كاشف بين المؤمنين وغيرهم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢**﴾ [المعارج: ١٩-٢٢] الآيات.

وجملة الأمر التي تجمع ما تقدم تجدها في قول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٨): **(وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله!)** اهـ، والمقصود من هذا النقل تحديداً: كلمة الرحمة.

فإن استقر في قلبك اليقين بهذه الألطاف المستورة بحجب الابتلاءات فاحمد الله واسأله المزيد من توفيقه، واعلم أن هذا اليقين في القلب محتاج إلى تحريك، فالعرب تقول: **يقن الماء في الحفيرة**، أي: طال مكثه، فالقلب كحفرة فيها ماء، ومعلوم أن هذا الماء لو استقر ولم يتم تحريكه بشكل دوري فسيتغير ويصيبه الأسن، فكذلك على من أيقن بشيء

من المعاني آنفة الذكر أن يحركها في قلبه بشكل دوري وألا يقنع بدخولها إلى قلبه أول مرة، فلربما أسنت وأصابها التغير ولم تبق على صفائها ونقائها.

وقد لخص الفراهي في كتابه "ملكوت الله" المذاهب الضالة في هذا الباب، قال: **(ولكن للأنظار العاكفة على الظواهر والقلوب المرفرفة على الشهوات ظنوناً وأوهاماً لما أنهم يشاهدون في الدنيا من المعاصي والآلام، بل ربما يرون غلبة الجور والفسق وهضم الأبرار وطغيان الفجار، فمنهم من آمن بإلاهين، كالمجوس، ومنهم من قال بأن الدنيا تحت حكم الشيطان، كالنصارى، ومنهم من زعم أن السيئات بخلق العباد، كالمعتزلة، وأما آلام الأطفال فبهتوا فيها! ومنهم من زعم أن الآلهة يتفرجون بما يجري في العالم، كمشركي اليونان، ومنهم من جحد بالإله الحي، وتمسك بأن الشر والإثم يناقضان كمال القدرة مع كمال العلم والرحمة، كملاحدة كل قرن، فهذه خمسة مذاهب بين الكفر والشرك والضلالة، نشأ كله من قصور النظر، وأما حل الشبهة فله طريقان: إجمالي وتفصيلي..)** اهـ.

ومن جميل كلام الرافعي في القدر: **(إن للأقدار مقاييس عجيبة لا يراد بها الكمية ولكن الكيفية، ولا يُطلب منها تحديد الشيء في ذاته ولكن تحديده في عواقبه، ويكون القياس على هذا اليوم الذي نحن فيه مثلًا ولا يراد به إلا مقدار ما سيكون في غد أو بعد غد أو أي الأزمنة مما يستقبل، ويأتي رجل كأبي جهل فيكون في أول الإسلام قياسًا للكفر والتعصب في الكفر واللجاج في التعصب، ولكن كل ذلك مردُّه ليشدَّ النَّبْوَة ويقيمها على طريقها ويسددها فيه، كأن الأقدار تبنى بناءً فإذا سألت ما الأساس؟ قيل لك: أوله هذه الحفرة)** اهـ، من "تحت راية القرآن".

وقد قال في كتاب "ملكوت الله": **(لما كان مجاري القضاء على الحكمة، وهي مبنية على العلم الدقيق الوسيع، وعقولنا كثيرا ما تحصر دونها، لا بد من الصبر على ما يرى حسب عقولنا خلافا للعدل والرحمة، كما رأيت في قصة موسى -عليه السلام- مع صاحبه الذي لم يستطع معه صبرا، وهذا الصبر العقلي مبني على الإيمان الكلي بعدل الرب تعالى، فالإيمان بعدل الرب تعالى ورحمته وحكمته أصل كلي عقلي، وعليه بناء الصبر العقلي، والجزئي محكوم**

عليه بالكلي، وكما يجري هذا الأصل في الحوادث فكذلك يجري في الشرائع، ولكن الشرائع مبنية على مصالحنا، فلم يجعلها الله تعالى بعيدة عن أفهامنا، وقد بينها كثيرا ولو بعض الجانب من الحكمة، ومع ذلك ما خفي علينا نحوله إلى علم الرب تعالى، ونؤمن بأنها كلها مبنية على الرحمة والعدل. وقد زلت قدم الأشاعرة في أمور القضاء والشرائع كلتيهما، فقالوا بأن الرب تعالى لا يراعي المصالح والحكمة بل يفعل ما يشاء. نعم، أنه تعالى يفعل ما يشاء، ولكنه لا يشاء إلا الرحمة والمصالح لعباده) اهـ.